موقف الخلفاء الفاطميين تجاه الشعراء والأدباء

شيماء يونس سايب

أ.م.د. حازم وطن هندي

كلية التربية ابن رشد / قسم التاريخ

موقف الخلفاء الفاطميين تجاه الشعراء والأدباء

شيماء يونس سايب

أ.م.د: حازم وطن هندي

منذ أن بسطت الدولة الفاطمية نفوذها، وأسست الخلافة إيماناً منها بأن الفاطميين هم أصحاب الحق في خلافة النبي (ﷺ) ولهذا كان لهم موقف مناهض تارةً وتوافق تارةً أخرى. لذا أخذوا بالتوسع في حدودهم بنشر المذهب الاسماعيلي اعتماداً على ما تملكه الدولة من امكانات أدبية وعلمية[١].

منذ اللحظة الأولى التي تولى فيها الخلافة المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١- ٣٦٥هـ - ٩٥٢- ٩٧٥م) توجهت أنظاره إلى المشرق وقد ساعدته الظروف في تحقيق هذا الهدف، منها استقرار الأثر الكبير في نشر المذهب الاسماعيلي وبالتالي سيطرة الفاطميين على مصر بعد أن استطاع جوهر الصقلي أن يفتحها سنة ٣٥٨هـ فعندما سمع المعز لدين الله ذلك الفتح. تقدم ابن هانيء الاندلسي وأنشد أبياته بين يدي الخليفة [٢].

بدأ تأثير السلطة الفاطمية الحاكمة واضحاً خلال فترة حكمهم في الشعر، فقد ظهر ذلك من خلال الهبات والعطيات التي كانت تمنح لطبقة الشعراء لقاء ما ينظموه من شاعر في خلفائهم ودولتهم (الوزراء والولاة وغيرهم).

إذ كانت هذه الأشعار عند مختلف الشعراء تتناول جوانب كثيرة تخص شؤون الاسرة الحاكمة، فركزوا على أبرز جهودهم السياسية في إقامة دولتهم. وخلافتهم في بلاد المغرب العربي وكيف تم بفضل سياستهم أن ينقلوا ويبسطوا نفوذهم على المشرق العربي.

غير أن هنالك سلطة حاكمة أينما وجدت مؤيدين ومعارضين[٣]، فحقبة الفاطميين لم تخل من وجود بعض الشعراء المعارضين لخلفائهم وأعوانهم من الوزراء ورجال الدولة، وقد كان هؤلاء الشعراء يقفون عند الجانب العقائدي، ويعزفون على هذا الوتر الحساس. فهو بنظرهم من أهم الدعائم التي يمكن أن تستثير همم الناس في قيام الثورات ومعارضة الحكم الفاطمي وسلطته. علماً بأن هؤلاء المعارضين لايمكن أن يقارن بعدد أولئك المؤيدين لتلك السلطة في مذهبها[٤].

أدرك الفاطميين أهمية الشعر في سلطتهم وكان لهم موقف من الشعراء، فهو لاشك فيه ان مؤثرات التأييد عند الشعراء للحاكم او السلطان يعزوها الجانب المادي والحصول على الجاه والمنصب، وكان ذلك منذ نشأة الشعر العربي من أبرز الدوافع عند بعض الشعراء المادحين، ولكن ذلك لاينطبق على جميع الشعراء فهناك من عم على غير ذلك[٥].

وقبل الولوج في هذا الجانب في طريق التأكيد عند الشعراء لسياسة الخليفة الفاطمي وحاشيته، لابد من التعرف على سياسة الدولة الفاطمية الخاصة بها وفقاً لمنبعها الرئيسي، ألا وهو الجانب العقائدي الديني الذي أملى على خلافة الخلفاء الفاطميين خارطة التعامل سياسياً مع من حولهم[٦].

لقد قامت الدولة الفاطمية بدعوتها في أواخر القرن الثالث الهجري، وكانت بداية الأمر غير معلنة في الشمال من افريقيا، وبعد أن تم التيقن من قوة هذه الدعوة أعلنت وسيطرت على افريقيا من برقة حتى المحيط الأطلسي، وتوجهت بعد ذلك انظار الفاطميين إلى بلاد المشرق، واصبحت لهم المطامع في الاستيلاء وبسط نفوذهم عليها، وفعلاً نجحوا في ذلك بعد أن فتحها لهم القائد جوهر الصقلي، وأسس فيها قاعدة وعاصمة يحكمها الخليفة الفاطمي المعز لدين الله[٧].

وأصبحت القاهرة قاعدة الدولة الفاطمية ومركز نشاطها السياسي والعسكري والفكري، ومنها توجهت جهودهم السياسية وانطلقت جيوشهم وأساطيلهم للسيطرة على الشام وجزر المتوسط ومقاومة الدولة العباسية (التي طالما رأت أحقيتها في حكمها وان العباسيين غاصبين لحكم الدولة الفاطمية) والملتفين حولها من امراء المشرق وزعماء القبائل العربية في الجزيرة العربية وبلاد الشام وبادية العرب(٨).

وفيها حاولوا السيطرة (فكرياً وعقائدياً) على العالم الاسلامي عن طريق تأهيل الدعاة في مدارسهم، وبخاصة في دار العلم ودار الحكمة، ودفهم إلى مختلف بلاد الاسلام شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً، ليبثوا العقيدة الفاطمية الاسماعيلية، ويمهدوا الدعوة الدينية للسيطرة السياسية(٩).

استطاع الفاطميون ان يستغلوا موقع مصر (المتوسط) في العالم الاسلامي لصالح احقيتهم في الحكم وبسط نفوذهم، فكانت الأرض المصرية خصبة بالنسبة لهم بالطاقات البشرية والفكرية والطبيعية والاقتصادية، وغيرها من الجوانب الداعمة لقيام دولتهم(١٠).

اضافةً إلى هذه العوامل فقد آذنت وشائل التفكك وعوامل الضعف بتفويض سلطان العباسيين والاقتطاع من دولتهم في الشرق والغرب، وبدأت الدويلات والامارات تنفصل انفصالاً تاماً أو جزئياً عن مركز الدولة بالعراق(١١).

تعددت الدعوات السياسية والدينية واستغل (الاسماعيليون الشيعة) ضعف الدولة ونفذوا ماكان لهُ من وراثة الخلافة على اعتبار أحقيتهم من العباسيين الذين اقاموا ملكهم على اساس الانتصار لهم والانتقام لقتل الإمام الحسين (عليه السلام) والعلويين واضطهادهم على أيدي الأمويين، ثم اختاروا الملك والسلطان لأنفسهم ولم يكتفوا بذلك، بل تعقبوا العلويين وحاربوهم ونكلوا بهم كما نكل الأمويين بهم بل أشد(١٢).

وبعد تلك الأحداث تشكلت الخلافة الفاطمية على أساس إمامي ديني، الخليفة فيها هو المعصوم الذي نال الخلافة (بالوصاية) ولاحق للناس في خلافهِ أو معارضته، كما أنه لاحق لهم في اختياره وبيعته فهو موصى إليه بالإمامة على الناس والقيام بأمر دينهم ودنياهم، وهم مجبورون على الطاعة لهُ والائتمار بأمره(١٣).

وفي الحديث عن الجانب (السياسي الأدبي) في الدولة الفاطمية فإن الشعراء هنا معنيون بتصوير النهج السياسي للدولة داخلياً وخارجياً، مادحين أو ناقمين ساخطين وهذه مهمة الشاعر كما عهدنا يسلط الضوء على ما يخص الدولة من أحداث(١٤).

وبما أن الدولة الفاطمية نهجت في سياستها منهجين أو سياستين داخلية وخارجية فإن الداخلية منها هي روابط العلاقة بينهم وبين الرعية من عامة الناس، وبحكم قرب الشعراء والأدباء آنذاك من السلطة واطلاعهم عن كثب على مجريات الأمور وما كانت تمر به الدولة الفاطمية من أحداث سياسية وداخلية أو ربما حتى خارجية في بعض الأحيان عندما تريد الدولة تبيان ذلك فإنهم رصدوا وسجلوا تلك الاحداث والجوانب السياسية في أشعارهم، مهما اختلفت أهدافهم ومواقفهم فهم جزء لايتجزأ من الحياة(١٥).

لقد كانت سياسة الفاطميين الداخلية من أهم أفرع السياسة المنيعة لتمكين دعائم الحكم الفاطمي وكما علم لقد كانت الدولة الفاطمية دولة مذهبية تسير على خطى (التشيع المذهبي). ولم تكن دولة ذات بقعة جغرافية منذ القدم، أي انها تختلف اختلافاً كلياً عن دولة العباسيين، ولقاء تلك الحداثة والبدايات لتأسيس دولة الفاطميين. كان ينبغي على خلفائهم اتباع سياسة ناجحة تنظم أمور دولتهم الفتية، ومن هؤلاء الخلفاء الذين نجحوا في خلافتهم جراء نهج سياستهم الخليفة المعز لدين الله الفاطمي(١٦).

كان الخليفة الفاطمي المعز لدين الله عند دخوله لمصر عمرُ ثلاثة وأربعين عاماً، ونهج في مصر سياسة تجمع بين الاغراء بالمال والاصلاح بالحسنى، والحزم الذي لاتهاون

معه وقت الضرورة، تلك سياسة عرفت " بسيف المعز مذهبه" فمن لايصلحه المال أصلحه السيف والعكس صحيح، فإنه قد بدأ بالسيف من يرى فيه العناد حتى إذا ملكه اصطفاه بذهبه، ومايغدق عليه المناصب والجاه والمال حتى يصبح ولياً طيعاً وسارت تلك السياسة خلفه من أبنائه وأحفاده(١٧).

لقد كانت لهذه السياسة (الداخلية) الأثر الكبير في موضوعات الشعراء آنذاك، حيث بدأ الشعراء والأدباء بالحديث عن صفات الخليفة الفاطمي التي جعلته قريباً من العرية، ومن هذه الصفات (الحلم)، فهو علاوة على انه صفه خلقية يعد حنكة سياسية يلجأ إليها كثير من السلاطين والحكام لإرساء دعائم حكمهم ويبسطون نفوذهم على الرعية داخل الدولة، وتدخل في هذه الصفة الخلفية والحنكة السياسية خصال أخرى كعلو الهمة، ورباطة الجأش، وسعة الصدر، والتسامح التريث وهي في المحصلة صفات المروءة العربية التي تمنح صاحبها ثقة بالنفس(١٨).

لقد ركز الشعراء والأدباء ومنهم على وجه التحديد ابن هانيء الأندلسي على هذا الجانب وبين أثره في سياسة الخليفة الداخلية، فالخليفة الفاطمي حليم تثبت فيه صفة الحلم كثبات الجبل، كما يقول، ابن هانيء(١٩).

والأرض تحمـــل حلمـــه فيؤودهـــا حتـــى تكـــاد بأهلهـــا تتزلـــزلُ

ويشير ابن هانيء في موضع آخر إلى هذه الصفة في المعز لدين الله الفاطمي والتي هي بمثابة دستور يسوس رعيته، إذ يقول(٢٠):

كـأن حلمـك أرسـى الأرض أو عقـدت بـــه نـــواحي ذرى أعلامهـــا القـــودِ

ومن البديهي أن يرافق حلم المعز لدين الله أمور أخرى تعد من متطلبات سياسته مع الرعية، فالحلم والصفح عند المقدرة صنوان لايفترقان، وهما أيضاً أساسيان في بناء قواعد الحكم وتثبيته في الرعية، حيث يقول ابن هانيء[٢١].

تـــدعوه منتقمـــاً عزيـــزاً قـــادراً غفـــار موبقـــة الـــذنوب صـــفوحا

أجـــد الســـماح دخيـــل أنســـاب ولا ألقـــاه إلا مـــن يديـــه صـــريحا

ان الشعر والمدح الذي يقوله ابن هانيء وغيره في حضرة الخلفاء الفاطميين ما هو إلا لمديد العطايا والهبات الغير محدودة لشعراء الدولة الفاطمية.

ويأتي ابن هانيء الشاعر ليروج لممدوحه المعز لدين الله أمام العيان بشكل واسع، فهو ليس حليماً يصفح عن الناس فحسب. بل يقابل الاساءة بالحسنى، لاستمالة قلوب الناس وعقولهم في الانصياع والطاعة، وفي ذلك يقول ابن هانيء[٢٢].

وصـــددت تحبـــو النـــاكثين مواهبـــاً هـــزت قـــؤولاً للســـماح فعـــولا

وهـــي الجـــرائم والرغائـــب مـــا التقـــت إلا لتصـــــفح قـــــادراً وتنـــــيلا

ويركز الشاعر على هذه الصفة عند الخليفة لارتباطها الوثيق بعلاقته مع الرعية ومدى انصياعها لحكم الخليفة، وهو محتاج لهذه الصفة لاستمالة القلوب والعقول إليه فيقول[٢٣]:

وأنـت بـدأت الصفح عن كل مذنبٍ وأنـت سـننت العفـو عـن كـل مجـرمِ

ومـــن يتـــيقن أن للعفـــو موضـــعاً من السيف يصفح عن كثير ويحلمِ

وكما أن سياسة الحكم تتطلب العفو والسماحة فإنها تتطلب من الخليفة أن يكون حازماً في كثير من الأمور ينبغي فيها ذلك، فالخليفة حازم في موقفه ذو عزيمة وهيبة، كما يقول ابن هانيء، لأن هذا من أركان الحكم أيضاً [٢٤].

وأنــت كلــوء الــدهر لا الطـرف هــاجعٌ ولا العزم مردوع ولا الجأش منخوب
وعـــز يظـــل الخـــافقين كأنـــه علــى أفــق الــدنيا بنــاء وتطنيــب

لقد كان ابن هاني عند وصفه للسياسة الفاطمية ولاسيما في شخصية الخليفة المعز لدين الله انما تصف حال حكم الفاطميين وموقف الخليفة من ابن هانيء في غدقه للهدايا والعطايا.

ويشير ان هانيء في موضع آخر إلى أن المعز لدين الله خليفة عزمه مؤيد عندما تستعظم الأمور، يلبي النداء إذا نوديَّ لقوة عزيمته، وما هذا إلا لقربه من الرعية ومدى حرصه على قضاء مصالحهم، إذ يقول ابن هانيء في ذلك(٢٥):

مؤيـــد العـــزم للجلـــى إذا طرقـــت منــدد السـمع فــي النــادي إذا نــودي

ولارساء هيبة الخليفة وتثبيتها في نفوس رعيته، فإن الشاعر يؤكد صفة العزم وثباتها في نفوس الخليفة، حتى شعرت الجبال هيبته، وإذا ما أراد أمراً فإنه حاصل بعزمه لامحالة، يقول ابن هانيء (٢٦):

وإذا أبيـــت فعزمـــة مضـــاءة لابـــد ان قضـــاءها مفعـــولُ
ولقــد أتيــت الأرض مــن أطرافهــا ووطئتهــا بــالعزم وهــي ذلــول
واستشـــعرت أجيالهـــا لـــك هيبـــة حتـــى حســـبنا أنهـــا ســـتزول

ويرى الخليفة المعز لدين الله ان ابن هانيء أصاب حينما وصفه بالأناة والتريث، كما أتصف بصفحة وعفوه بالمقدرة وهي لازمة من لوازم الحكم والسياسة واساس في التعامل مع الرعية، إذ قال (٢٧).

ومــا الــرأي إلا بعــد طــول تثبــت ولا الحــزم إلا بعــد طــول تلــوم

وغالباً ماكان حزم الخليفة مقترناً بالأناة والحزم وهي السياسة التي رآها الخليفة صالحة للحكم وإدارة الدولة، حيث يقول الشاعر [٢٨]:

بـل لـو ثنيـت إلـى الخلـيج بعزمـه سـرت الكواكـب فيـه وهـي سـفين

لـو لـم تكـن حرمـا أناتـك لـم تكـن للنـار فـي حجـر الزنـاد كمـون

إن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله هو صاحب السلطة والمتحكم في زمام الأمور وكان يجب عليه التريث والتأني ليتسنى لهُ الصواب والدقة في اختيار رجال دولته ومن يعادونه فيها، وهذا أمر طبيعي جداً:

ذو الحـــزم لايتـــدبر الآراء فـــي اعقابهـــا مـــا الـــرأي إلا الأول

متقلـــد بـــيض الشـــفار صـــوارماً منهـــا نهـــاه ورأيـــه والمنصـــل

وهذه إشارة واضحة من الشاعر لسياسة الخليفة والسلطة المتمثلة في الدقة في اختيار الاعوان ومن يدير شؤون الدولة [٢٩].

أما الشاعر ابن حمدون[٣٠]، شقيق الأمير جعفر، فلم يكن يختلف عمن سبقه وكأن موقف الخليفة الفاطمي منه واضحاً حينما وضح سياسة الفاطميين من خلال شعرهِ قائلاً:

نظـرت ممـا للملـك غيـرك حـازم لبيـب ولا فـي النـاس غيـرك عاقـل

وانـــك أوفـــى العـــاملين بذمـــةٍ وأطـولهم باعـاً الـى مـا تحـاول

للخليفة المعز موقف مؤيد تجاه الشعراء ولاسيما حينما يكونوا يؤدوا دوراً هاماً كالقصيدة التي ألقيت بتوديع جوهر الصقلي ووصف جيشه[٣١]. حيث أغدق عليه بالهبات والعطايا التي يستحقها[٣٢].

أما الشاعر ابن حداد الذي عاصر من الخلفاء الفاطميين الآمر بأحكام الله (٤٩٥ – ٥٢٥هـ/١١٠١– ١١٣٠م) ووصف سياسته الناجحة بإدارة البلاد، وقد كان للخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله موقفاً واضحتً تجاه الأديب والشاهر ابن حداد، حينما وصفه بشاعر البداهة للسياسة الفاطمية الذي بموجبه وصف السياسة الفاطمية في عهد الآمر بأحكام الله صاحب العزم الذي لايكل وذو عدل مع الرعية بقوله:

لقد كان في اقباء عدلك مرتع لهم فيه – لو لم يغدو – عيشة رغد
وفي العدل اصلاح الخليقة كلها ولكن من بينها يفسد الوغد

ويركز ابن حداد على سياسة العدل التي انتهجها الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي. فهو يصف الخليفة بأعدل الناس إذ قال:

يا أفضل الناس أفعالاً وتسمية وأعدل الخلق نفساً حرةً وأبا

وما كان لدى الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله إلا أن يكون لهُ موقفاً معتدلاً مع الشاعر حيث وصفه بالشاعر العادل وأغدق عليه الأموال والعطايا.

كان للخليفة الفاطمي تجاه الأديب والشاعر ابن حداد باغداق الهدايا والعطايا ليس لأنه مدحهُ بل صار يمدح حتى وزرائه حيث اشار في بعض قصائدهِ الى حسن سياسة هؤلاء الوزراء، ويبين كيفية تصريف شؤون الحكم والتعامل مع الرعية، فهو يؤكد تلك السياسة تأييد مطلق ويقف موقفاً ايجابياً من سلطة الفاطميين ومن ذلك اشادته بالوزير الفاطمي (الأفضل بن بدر الجمالي[٣٣]) إذ يقول:

رتب خصصت بها وما صادفتها لكن افادك بها الحجى والسؤدد
وسياسة ورياسة ونفاسة وتفقد وتسدد وتأييد

أما موقف الخلافة الفاطمية من الشاعر ابن حبوس[٣٤]، الذي جاء في قصائده المدح برجالات الدولة الفاطمية، ومن هؤلاء القادة الذين أعلى من شأنهم في تأييده الوزير أمير الجيوش الدوبري[٣٥]، إذ قال[٣٦]:

ولقد أجرت الخائفين ومالهم في الأرض عن حجرات ملكك مذهب
وغمرتهم صفحاً يقرب منهم من ماله عمل إليك يقرب
فالعفو فيك فضيلة مكنونة حتى يبين فضله من يذنب
كم آمنت سطوات عزمك خائفاً وجلا وراعت ارواعاً صنديدا

أما الشاعر أبي الفتح ابن ابي حصينة، وهو من الشعراء الذين لايقلون مكانة عن غيرهم من شعراء الدولة الفاطمية وأطلق عليه لقب (شاعر الوزراء والقادة) ومنهم الأمير معز الدولة (ثمال بن صالح بن مرداس)[٣٧]، إذ قال:

وتجملت حلب وأصبح أهلها في مثل باكرة الربيع المرهم

ولا نعلم لماذا (أبي الفتح ابن أبي حصينة) لم نجد في ديوانه ما يمني النفس في مدح الخلفاء الفاطميين ولكن في النهاية يعد مدحه رجالات الدولة ووزراء الدولة تأييداً لسياسة الحكومة الفاطمية وهذا ما يؤكد كلامنا اننا لم نجد أية إشارة من شأنها تعادي أو تكرم الشاعر آنذاك من قبل الخلافة الفاطمية. ثم يقول[٣٨]:

لقد عز قوم شايعوك وحصنت ثغور عليها من سيوفك أقفال

في حقيقة الأمر: إن موقف السلطة الحاكمة من الادباء والشعراء لابد وان يكون هنالك موقفاً عدائياً لاسيما في الشعر العقائدي، فقد كانت الدولة الفاطمية في اساس قيامها على مذهب التشيع في عقيدتها التي جاءت من أجلها، لذا فهي دولة ذات وجود عقائدي متشيع أكثر منها وجوداً جغرافياً[٣٩].

وبما أن جوهر الدولة الفاطمية هو الجانب الديني والعقائدي، فقد اهتم الشعراء بهذا الجانب، وأولوه عناية فاقت عنايتهم بالموضوعات والجوانب الأخرى، فهو المنطلق بالنسبة لألسنتهم لصياغة الأشعار والقصائد التي تبجل خلفاء هذه الدولة وأعوانهم من وزراء وقادة وقادةِ جيوش وولاة على ما ينضوي تحت رايتهم من بلاد ومدن [٤٠].

لذلك هتم شعراء الخلافة الفاطمية بجانب العقيدة الفاطمية والدفاع عنها بكل ما أتيح لهم من خلال اشعارهم وكذلك اهتمامهم بالخليفة الفاطمي وإبراز دعوته وصفاته الدينية، فهو في نظر الادباء والشعراء خليفة للمسلمين معصوم موصى به للإمامة، وان الدنيا خلقت للإمام كما خلقت الروح للجسد، وغيرها من الصفات التي سنوضحها[٤١].

تجدر الإشارة الى مغالاة بعض الشعراء في وصفهم الخلفاء الفاطميين وحديثهم عنهم، فهنالك من بالغ إلى حد الكفر في وصفهم بصفات الألوهية، وصفات الأنبياء والرسل (ﷺ) كشاعر الدولة الفاطمية محمد بن هانيء الاندلسي [٤٢]، وغيره من الشعراء بالإضافة الى دفاع الشعراء عن الخلافة الفاطمية وخلفائها وأحقيتهم بها من غيرهم، مستندين في دفاعهم هذا على الجانب الديني والعقائدي وما يزخر به من مصلحات دينيه تخص عقيدتهم[٤٣].

إن الفاطميين عندما جاءوا الى مصر جاءوا ومعهم عقيدة دينية خاصة وافكار لايستوعبها إلا من كان منتسباً للعقيدة[٤٤]، والمذهب الشيعي الفاطمي، وبذلك اصبح لهذه العقيدة تأثير بارز في الآدب والشعر ومصطلحات الشعراء الذين اتصلوا بالخلفاء الفاطميين وعمل الشعراء على تضمين قصائدهم الموجهة لمدح الخليفة الفاطمي أو أحد أعوانه تلك المصطلحات التي تشير إلى مذهب الفاطميين وعقيدتهم الشيعية وبذلك أصبح لسان الشاعر خير مدافع عن هذا المذهب وخلفائه، ولقاء ذلك كان الخلفاء الفاطميون يغدقون العطاء والجزيل من المال على هؤلاء الشعراء، لا بل يقربونهم لبلاط قصرهم ويهتمون بهم اشد

اهتمام وذلك لأنهم سيكونون سيفاً من الشعر ورمحاً من الفاظه وصوره ومعانيه التي تدافع عن ولاية خلافتهم، حتى ان بعض الخلفاء أوقف الشعراء رواتب دائمة مما يدل على اعتماد هؤلاء الخلفاء على الشعراء لتأييد مذهبهم وعقائدهم الفاطمية [٤٥].

لاشك ان الدولة الفاطمية من أكبر الدول الاسلامية آنذاك ثراءً، وجراء ذلك الثراء لم يكن هنالك سبباً أو مانعاً من الافراط في عطايا الشعراء وإكرامهم اضافةً الى ذلك حدا هذا الثراء بالخلفاء الفاطميين الى استحداث الاعياد والمناسبات الدينية[٤٦]. وغيرها لتكون بمثابة مهرجانات واحتفالات يستعرضون من خلالها دولتهم ومذهبها الجديد على الناس، وقد يكون لهم مرام اخرى غير ذلك من خلال تلك المناسبات[٤٧]، حولهم. كدولة العباسيين والأمويين، وبذلك من الممكن أن يكون ذلك استعراضاً سياسياً، مبطناً عندهم وعند شعرائهم.

في هذا الصدد يذكر العماد الاصفهاني[٤٨]: " ان الخلفاء الفاطميين قد استحدثوا وظيفة في الدولة هي(مقدم الشعراء) ويذكر ان مقدم الشعراء في عهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي هو الملقب بسعود الدولة المعروف بأبن جرير الطبري[٤٩]. حتى ان الأمر قد وصل إلى سيدات القصور الفاطمية، فكان يمنحن الأموال ويبالغن في عطائهن كلما سمعن شاعراً يمدح ويجيد في مدحهِ الخلفاء الفاطميين وهذا ما قد حصل مع الشاعر عمارة اليمني[٥٠]. حيث منحته السيدة الشريفة بنت الامام الحافظ، خمسمائة دينار عندما أنشد قصيدته الأولى في مصر[٥١].

ولهذا السبب من اغداق المال والعطايا من الخلفاء الفاطميين على الشعراء في ذلك العصر، واصبح الشعراء يعملون على اتقان شعرة واجادة صياغته والاكثار من انشاده في مختلف المحافل، فبلغ بذلك الخلفاء ما يرمون لهُ في ذلك، فأصبح الشعر بمثابة دعاية سياسية تتخذ من الجانب الديني دعائم لها، لتقف بوجه من يعارض دعوتهم وامامتهم من

أهل عصرهم، بالإضافة الى ألدّ أعدائهم ومكمن الخطر على مذهب دولتهم، ألا وهم العباسيون في بغداد، وبنوا أمة في بلاد الشام.

لاشك ان هنالك شعراء لم تكن نيتهم العطاء أو المال في اشعارهم الممجدة للخلفاء الفاطميين وعقائدهم، وذلك لأنهم أصحاب المذهب الشيعي أصلاً، والناشئون عليه منذ الصغر، ومثال ذلك الوزير والملك الصالح الشاعر طلائع بن رزيك[٥٢]. والأمير تميم بن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي[٥٣]، إذ يعد تميم أميراً فاطمياً وشاعراً مجيداً، لذا سنورد شواهد شعره المؤيد للخلافة الفاطمية ضمن أشعار الشعراء والمؤيدين فقط لإيمانهم بعقيدة المذهب الفاطمي، والنشأة على أساسه، على خلاف تلك المجموعة من الشعراء، سواء أكانوا من أهل مصر، أم وافدين عليها. والذين كانوا يتخذون من القصائد الفاطمية وسيلة للوصول إلى مدح الخلفاء، مضمنين أشعارهم تلك العقيدة، وما تحمله من مصطلحات وأفكار خاصة بها لينالوا التقريب والزلفى من الخلفاء ورجال دولتهم من الأمراء والوزراء وقادة الجيوش وغيرهم.

برع بعض الخلفاء في قضية تعاطي الشعر والتبصر بهِ وذلك تقديراً منهم لهذا السلاح الذي سيذب عنهم وقع اعدائهم، علماً ان لم تكن سوى أبيات تكاد تصل إلى مسمى (مقطعات شعرية)[٥٤]، أراد منها الخلفاء في ذلك العهد الدفاع عن عقيدتهم، وتأييد ما ينضوي تحت راية خلافتهم من مصطلحات وأفكار خاصة بمذهبهم ومن ذلك ما قاله المنصور بالله الفاطمي والد المعز لدين الله الفاطمي[٥٥].

تبـــدلت بعـــد الزعفـــران وطيبـــهُ صدا الدروع من مستحكمات السوامر
ألـــم ترنـــي بعـــت المقامـــة بالســـرى ولـــين الحشـــايا بـــالخيول الضـــوامر
وفتيـــان صـــدق لاضـــغائن بيـــنهم يثـــورون ثـــورات الأســـود الخـــوادر
أرونـــي فتـــى يغنـــي غنـــائي ومشـــهدي إذا رجـــع الـــوادي لوقـــع الحـــوافر

أنا الطاهر المنصور من نسل أحمدٍ بسـيفي أقـد الهـام تحـت المغـافر

فالخليفة الفاطمي في الشعر اعلاه يمثل بحسه تلك الحماسة التي تعيش في نفسه بنفسه وذلك من خلال البيت الأخير الذي يشير به الى اتصال نسبه بالنبي محمد (ﷺ)[٥٦] وذلك من فرع ابنته السيدة الزهراء فاطمة زوج الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام) متصلين كما يدعون بعلي والحسن والحسين (عليهم السلام)[٥٧].

ولم يقف قول الشعر عند خليفة فاطمي في عهده فقط، بل نلاحظ ان من بلغ من أبنائهم وأحفادهم إلى سدة الحكم يقول الشعر في مختلف المناسبات فالخليفة العزيز بالله نزار الفاطمي (٣٦٥ – ٣٨٦ هـ/ ٩٧٥ – ٩٩٦م) من الخلفاء الذين نظموا الشعر وأنشدوه، فيورد الثعالبي[٥٨]، أبياتاً للعزيز بالله الفاطمي وقد وافق ذلك في عيد من الاعيان وفاة ابن له فيقول:

نحـــن بنـــو المصـــطفى ذو محـــنٍ يجرعهـــا فـــي الحيـــاة كاظمنـــا

عجيبـــة فـــي الأنـــام محنتنـــا أولنـــــا مبتلـــــى وقائمنـــــا

يفـــرح هـــذا الـــورى بعيـــدهم طـــــراً واعيادنـــــا مآتمنـــــا

فالشاعر الفاطمي ابن الخلافة الفاطمية في هذه الأبيات بينت لقارئها وسامعها عن مشاعر ألم تعتصر في قلبهِ، ولم يكن مصدر هذا الحزن والألم في رأيه وفاة ابنه فقط، ولكنه يتجرع الأسى والألم على ما حل بأهل البيت منذ القدم من محن ونوائب حتى غدت اعيادهم مآتم معلناً للمصطفى (ﷺ)[٥٩]. فمنذ أن تأسست الدولة الفاطمية كان الشعراء يمدحون خلفاء هذا المذهب ويؤيدونهم في عقيدتهم التي جاءوا في أشعارهم.

وكثر الشعراء المؤيدون للسلطة الفاطمية ومذهبها المتشيع، إذ تعذرت أشعارهم حاملة ذلك التأييد الديني في طياتها للخليفة الفاطمي، سواء أكانوا من الشعراء المحليين في ذلك العهد، أم من الوافدين من الخارج، ويمكن هنا البدء بمشاعر الدولة الفاطمية الوافد إلى

مصر زمن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، وهو محمد بن هانيء الأندلسي، الذي نظم فيهم فأحسن النظم، وبالغ في وصفهم ومدحهم لينال ما رغب، ففي قصيدة نظمها في مدح المعز لدين الله الفاطمي، يهنئه من خلالها ليشتهر رمضان بدأ كعادته بمقدمة غزلية أحسن من خلالها التخلص لموضوع قصيدته وجوهرها الرئيس، وهو مدح خلافة الفاطميين وتمجيدها لتطاول اعنان السماء وتأييد حكمهم بما يتاح لهُ من معتقدات المذهب الفاطمي ومصطلحاته المتعارف عليها عندهم، فيصور الخليفة بأنه سبب خلق الله تعالى لهذه الدنيا، وهو مخلوق من صفو ونقاء ماء الوحي، ومن جنة الفردوس ومن تلك الشعلة التي عرضها الله على نبيه موسى (عليه السلام) إلى أن يراه الاندلسي قد خلق من معدن التقديس، وفي خلفه شيء من ملكوت الخالق عز وجل إذ يقول[٦٠]:

هو علة الدنيا ومن خلقت له ... ولعلةٍ ما كانت الأشياء
من صفو ماء الوحي وهو مجاجه ... من حوضه الينبوع وهو شفاءُ
من أيكة الفردوس حيث تفتت ... ثمراتها وتفيأ الأفياء
من شعلة القيس التي عرضت على ... موسى وقد حارت به الظلماء
من معدن التقديس وهو سلالة ... من جوهر الملكوت وهو ضياء

ويتابع ابن هانيء في القصيدة نفسها تأييده للخليفة الفاطمي المعز لدين الله عقائدياً، ويصفه بأمين الله على العباد وحالهم، وهو الذي عطفت عليه أرض مكة وبطائحها، وان الشاعر يقول[٦١]:

لم يشركوا في أنه خير الورى ... ولدى البرية عندهم شركاءُ
نزلت ملائكة السماء بنصره ... واطاعه الاصباح والامساءُ
وما خلقت عبثاً أمة ... ولا ترك الله قوماً سدى
لكن بني أحمد فضلهُ ... ولكن إذا السيد المجتبى
كأن الهدى لم يكن كائناً ... الى أن دعيت معز الهدى

المصادر والهوامش:

[١] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٤٨.

[٢] الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، تحقيق: محمد البعلاوي، دار القرب الاسلامي، (بيروت، ط١)، ص١٣٦. سوف ترد الأبيات في موضعها.

[٣] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٤٨.

[٤] حمادة: محمد ماهر، الوثائق السياسية، ص٣٢.

[٥] المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج١، ص١٤١.

[٦] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٤١.

[٧] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٤٢.

[٨] المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص١٤٢.

[٩] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٤٥.

[١٠] حمادة، الوثائق السياسية، ص٣١.

[١١] سيد، أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية، ص١٣٩.

[١٢] سلام محمد زغلول، الأدب في العصر الفاطمي، الكتابة والكتاب، ص٢٠.

[١٣] سلام محمد زغلول، الأدب في العصر الفاطمي، الكتابة والكتاب، ص٢٠.

[١٤] سرور، تاريخ الحضارة الاسلامية، ص٤٣٨.

[١٥] سرور، تاريخ الحضارة الاسلامية، ص٤٣٨.

[١٦] سلام محمد زغلول، الأدب في العصر الفاطمي، الكتابة والكتاب، ص٢٧.

[١٧] سلام محمد زغلول، الأدب في العصر الفاطمي، الكتابة والكتاب، ص٢٧.

[١٨] حسين، محمد كامل، أدب مصر الفاطمية، ص٢٨١.

[١٩] حسين، محمد كامل، أدب مصر الفاطمية، ص٢٨١.

[٢٠] الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص٣١٩.

[٢١] الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص١٠٥.

[٢٢] الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص٢٧٧.

[٢٣] الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص٣٤٨.

[٢٤] الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص ٤٥- ٤٦.

[٢٥] الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص١٠١.

[٢٦] الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص٢٩٣.

(٢٧) الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص٣٤٨.

(٢٨) الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص٤٠٤.

(٢٩) الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص٢٤٨.

(٣٠) هو يحيى بن علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي يعرف بأبن الأندلس الأمين، السيد محسن أعيان الشيعة، ج٤، ص٣٠٩.

(٣١) الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص١٤١.

(٣٢) الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص١٤٢.

(٣٣) هو الوزير الأفضل أبو القاسم شاهنشاه بن بدر الدين الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستعلي بالله (٤٨٧ – ٤٩٦ / ١٠٩٤– ١١٠١م) في مصر، ولد بعكا وهو مملوك أرميني الأصل (ت ٥١٥ هـ). ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، ج٢، ص ٤٤٨.

(٣٤) ابن حبوس، الديوان، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، (بيروت ١٩٨٤م)، ج١، ص ٨٥.

(٣٥) هو أنشتوكين الدربري، ولد في تركستان، سيرة الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة (٤٠٩هـ) في عسكر إلى الشام، ثم عاد الى دمشق بعد أن دخل الشام، ثم تولى بعلبك وقيساريه وفي سنة (٤١٤هـ) ولاه الخليفة الظاهر فلسطين، توفي سنة (٤١٩ هـ) ولاد دمشق، لهُ من الالقاب الأمير المظفر، وأمير الجيوش، وعدة الامام، وسيف الخلافة، وعضد الدولة، وشرف المعالي، ينظر: ترجمته، ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن، تاريخ دمشق، دار الكتب الظاهرية، (دمشق د.ت)، ج٣، ص١٥١.

(٣٦) ابن حبوس، الديوان، تحقيق: خليل مردم بك، دار صادر، (بيروت ١٩٨٤م)، ج١، ص ٨٥.

(٣٧) هو ثمال بن صالح بن مرداس السلمي، وقد لقب بالأمير الجليل الأغر، تاج الملوك وفخر الملك، وسيف الخلافة وعضدها وشرف المعالي وبهاء الدولة العلوية، وزعيم جيوش المستنصرية، وهو أحد ولاة الفاطميين في بلاد الشام، ينظر: ابن النديم، زبدة حلب في تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، (دمشق ١٩٩٨م)، ج١، ص٢٨١.

(٣٨) ابن ابي حصينة، الديوان، شرح أبي العلاء المعري، تحقيق: محمد أسعد طلس، المطبعة الهاشمية، (دمشق ١٩٥٦م)، ج١، ص٢٣.

(٣٩) المقريزي، الخطط، ج١، ص٨٦.

(٤٠) الاندلسي محمد بن هانئ، الديوان، ص١٤١.

(٤١) مقريزي، الخطط، ج١، ص ١٤١.

(٤٢) شاعر الدولة الفاطمية وهو من أله الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الفاطمي وسف ترد اشعاره في مجال القائه.

(٤٣) الاندلسي محمد بن هانئ، الديوان، ص١٤٢.

(٤٤) للمزيد ينظر: التمهيد عن العقيدة الاسماعيلية.

(٤٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٤٨١.

(٤٦) حسين محمد كامل، ادب مصر الفاطمية، ص٥٠١.

(٤٧) حسين محمد كامل، ادب مصر الفاطمية، ص٥٠١.

(٤٨) الأصفهاني، أبو عبد الله محمد بن صفي الدين، خريدة القصر وجريدة العصر، نشر وتحقيق: احمد أمين شوقي ضيف واحسان عباس، لجنة التأليف والنشر، (القاهرة ١٩٥١م)، ص١٠٢.

(٤٩) ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري، ص١٠٣.

(٥٠) الأصبهاني، خريدة القصر، ص١٠٣.

(٥١) الأصبهاني، خريدة القصر، ص١٠٣.

(٥٢) هو طلائع بن رزيك الملك بالملك الصالح والوزير الظافر، عراقي الأصل نشأ في بيت ابيه الصالح حيث كان والياًبمنية بني خصيب وهي من أعمال صعيد مصر، تولى الوزارة في أيام الفائز واشتغل بالأمور وتقدير أحوال السنة، ينظر: ان خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٥٢٦.

(٥٣) الاصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ص١٠٢.

(٥٤) الجوذري، أبو علي منصور العزيزي، سيرة الاستاذ جوذر، تقديم وتحقيق: محمد كامل حسين، ومحمد عبد الهادي، دار الفكر العربي، (مصر ١٩٥٤م)، ص٥٠.

(٥٥) الجوذري، سيرة الاستاذ جوذر، ص٥٠.

(٥٦) حمادة، محمد ماهر، الوثائق السياسية، ص٢٨.

(٥٧) حمادة، محمد ماهر، الوثائق السياسية، ص٢٨.

(٥٨) الثعالبي، عبد الملك ابو منصور (ت ٣٥٠-٤٢٩هـ /٩٦١- ١٠٣٨م) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية (بيروت ١٩٨٣م)، ج١، ص٢٢٣.

(٥٩) حمادة، محمد ماهر، الوثائق السياسية، ص٢٨.

(٦٠) الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص١٨.

(٦١) الاندلسي، محمد بن هانيء، الديوان، ص ١٩.